في النحل وكلب الماء والفيل والفرس وغيرها وسرد ما يؤثر عنها من التحوط والنجابة والفهم والامانة وغير ذلك مما يقضي بالعجب العجاب فاكتفي من هذا البحث بالقدر الذي اوردتهُ وهو كافٍ للحكم

واما القوى الادبية فلما كانت مرتبطة كل الارتباط بالقوى العقلية وكانت من اهمّ المميزات بين الانسان والحيوان لم يكن لنا بدٌّ من البحث فيها وايراد ظواهرها وسيتضح للقارئ ان آثار الارتقاء الادبي جلية الظهور في اخلاق الحيوانات الدنيا مما يدلنا على تدرج الارتقاء العقلي والادبي معاً. فالحاسة الادبية — او الضمير — من اعظم الفوارق بين الانسان والحيوان وهي تنمو بنمو القوى العقلية فكلما ارتقى الانسان عقلاً ارتقت معهُ الحاسة الادبية لاتصالها بالروابط الاجتماعية من مثل الغريزة الاجتماعية (او الميل الى الاجتماع) والمحبة الوالدية وما شاكلهما . فالغريزة الاجتماعية من شأنها ان تبعث المجتمع على السرور بالاجتماع وبالتالي على التعاطف . وليس بخافٍ ان الآداب اعتبارية او نسبيّة وهي عبارة عن عمل « الواجب » ولذلك تختلف باختلاف اعتبار عمل الواجب . فإناث النحل العاملة مثلاً تقتل الذكور لانها لا تجني عسلاً مثلها وتستحيي الاناث لانها هي التي تقوم بمقتضيات هيئتها الاجتماعية فلو كانت احوالنا مماثلة بكليتها لاحوال النحل ربما كنا نعتبر القتل من واجباتنا مثلها . ولما كان المجتمع الحيواني كالمجتمع الانساني لا يقوم الا بالتعاون والتعاضد كان الميل في الحيوان الى التعاضد غريزيًّا مثلهُ في الانسان لرسوخهِ فيهِ جرياً على قاعدة الارث . فالقرود والذئاب والزيغان والقطا وغيرها تعيش اسراباً وتتعاون في تحصيل رزقها .

وقد يتألف بعض افراد المجتمع الواحد من الحيوان تألفاً يكون من وراء تفرقهِ وحشة اليمة تفضي الى الشقاء . وكل من عني بملاحظة الحيوانات الاليفة يعلم ما تظهرهُ الخيل والكلاب من الكآبة والانكسار عند فصل بعضها عن بعض ومن الأُنس والابتهاج عند عودها الى الاجتماع حتى لقد يعاف بعض الحيوانات الطعام حزناً على فراق أليفهِ فيقضي شهيد امانتهِ وحسرتهِ — فهل يوجد كثيرون من الحيوانات الناطقة يموتون شهداء الامانة — . وجميع قطعان الحيوان واسراب الطير تبدي من التحوط واليقظة ما هو جدير بالاستغراب . فالارانب والاراوي تضرب الارض بقوائمها تنبيهاً للقطيع عند دنو الخطر . وبعض ذوات الاثدي وكثير من الطير تقيم حراساً تتكفل بوقاية السرب من الغيلة . وقواد القرود تفوه بعلامات الخطر والسلم في حينها فتقي جماعاتها من مفاجأة العدو . وغالب الطير يصوت عند نهوضهِ من مجثمهِ اذا فاجأهُ خطر فينبه بعضهُ بعضاً للفرار من وجههِ

(ستأتي البقية)

عمدة الصفُوة في حلّ القهوة

(تابع لما في الجزء السابق)

واما اول ظهورها بمصر فقال العلامة ابن عبد الغفار انها ظهرت في حارة الجامع الازهر في العشر الاول من هذا القرن وكانت تُشرَب في نفس الجامع برواق اليمن يشربها فيهِ اليمانيون ومن يسكن في رواقهم من اهل الحرمين وكان المستعمل لها الفقراء المشتغلون في الرواتب من الأذكار والمديح

على طريقتهم المذكورة وكانوا يشربونها كل ليلة اثنين وجمعة يضعونها في ماجور كبير من الفخار الاحمر ويأخذ منها النقيب بسكرجة صغيرة ويسقيهم الأيمن فالأيمن مع ذكرهم المعتاد عليهِ غالباً وهو لا اله الا الله الملك الحق المبين وكان يشربها معهم موافقةً لهم من يحضر الرواتب من العوام وغيرهم. قال وكنا ممن يحضر معهم وشربناها فوجدناها تُذهِب الكسل والنعاس كما قالوا بحيث انها كانت تُسهِرنا معهم ليالي لا نحصيها الى ان نصلي الصبح مع الجماعة من غير تكلف وكان يشربها معهم من اهل الجامع وغيرهم خلقٌ لا يُحصَى . ولم يزل الحال على ذلك وشُربت كثيراً في حارة الجامع الازهر وبيعت بها جهراً في عدة مواضع ولم يتعرض احدٌ ولا انكر شربها لا لذاتها ولا لوصفٍ خارجٍ عنها من ادارة وغيرها مع اشتهارها بمكة وشربها في نفس المسجد الحرام وغيرهِ بحيث لا يُعمَل ذكرٌ او مولد الا بحضورها . وفشت بالمدينة الشريفة دون فشوّها بمكة حيث ان الناس يطبخونها في بيوتهم كثيرًا

ثم حدث الانكار عليها بمكة الشريفة في سنة سبعة عشر وتسعمائة وكان القائم في ذلك رجلين اعجميين اخوين كانا مشهورين بالحكمة وكان لهما فضيلةٌ في المنطق والكلام والطبّ ويدّعيان مرتبةً في الفقه لم تسلَّم لهما وهما الرجلان اللذان رحلا الى مصر في اواخر دولة الغوري واقاما بها حتى قدم اليها السلطان الملك المظفر سليم شاه فقتلهما توسيطاً لِما كانا يُرمَيان بهِ مما الله اعلم بحقيقتهِ . واعانهما على القيام في امرهما الشيخ شمس الدين محمد الحنفي الخطيب نقيب قاضي القضاة سريّ الدين بن الشحنة وأناسٌ آخرون فأغرى الشيخ شمس الدين الخطيب الامير خاير بك المعمار باش مكة

ومحتسبها اذ ذاك على إبطالها من الاسواق ومنع الناس من شربها وقرر عندهُ انها موصوفة بتلك الصفات القبيحة ورغّبهُ بذلك جدًّا وحملهُ ان يعقد لهُ مجلساً عندهُ وانفصلوا منهُ على القول بحرمتها وكتبوا بذلك محضراً انشأهُ لهم الشمس الخطيب وارسلوهُ الى مصر وارسلوا معهُ سؤالاً انشآء الحكيمين والخطيب وطلبوا مرسوماً سلطانيًّا لمنعها بمكة المشرفة . ولما انصرفوا من عقد المجلس اشهر الامير خاير بك النداء بمنع شربها وشدد في ذلك حتى انهُ عزَّر جماعةً من باعتها وكبس مواضعهم واخرج ما وجدهُ فيها من قشر البنّ واحرقهُ في وسط المبيع فبطلت حينئذٍ من السوق وكان الناس يشربونها في بيوتهم اتقآء شرّهِ لانهُ بلغهُ عن شخصٍ انهُ شربها فعزَّرهُ وطاف بهِ في الاسواق

ثم بعد ذلك ورد المرسوم السلطاني ولكن لا على وفق غرضهم كما ستقف عليهِ فتجاسر الناس على شربها لا سيما وقد بلغهم انها لا تُمنَع في مصر التي هي بلدة السلطان ولم ينكرها احدٌ من علمآئها وفتر خاير بك عن التسلط على الناس بسببها واستمرّ الحال على ذلك . ثم قدم ناظر الخواص الشريفة العلآء ابن الامام الى مكة المشرفة سنة ثمانية عشر وتسعمائة لمهمٍّ سلطاني فمنع الشمس الخطيب من تحمُّل الشهادة وأدآئها واراد حملهُ الى مصر ثم اعفاهُ من ذلك فانقطع الخطيب في بيتهِ للموسم فازداد الامر فتورًا والقهوة ظهوراً وتوجه الخطيب صحبة الركب الى مصر وتوفي بالينبوع وقال بهذا المعنى بعض اهل المجون ونُسِب ذلك الى الشيخ ابي الفتح المالكي في الشام شعراً

قهوة البنّ حُرِّمت فاُحتسوا قهوة الزبيب
ثم طيبوا وعربدوا وانزلوا في قفا الخطيب

وقال غيرهُ

قهوة البنّ حُرِّمت فاشربوا قهوة العنب
واشربوها وعربدوا والعنوا من هو السبب

واتفق في عام الثمانية عشر المذكور ان الامير قطلباي قدم الى مكة صحبة الركب الشريف باشاً عوضاً عن خاير بك واكثر شربها فاشتهرت اضعافاً عن اشتهارها الاول ولم يزل امرها يتزايد في الحرمين وغيرهما ولم يتعرض احد

وبلغ الشيخ العارف بالله محمد بن عراق لما قدم الى مكة في ذي القعدة الحرام سنة اثنين وثلاثين انهُ كان يُفعل في بيوت القهوة اشياء من المنكرات فاشار على الحكام بابطال بيوتها مع تصريحهِ بحلّها في حدّ ذاتها غير مرةٍ لغير واحد بحيث بلغ ذلك منهُ مبلغ التواتر المفيد للقطع وكذلك لم يتعرض لابطالها من المدينة طول اقامتهِ فيها . وبلغهُ ان امرأةً شابّةً تبيع القهوة بالمدينة مكشوفة الوجه فمنعها من البيع فشكت اليهِ حالها والحاجة فأذن لها بالبيع بشرط الستر ففعلت . ولما توفي الشيخ بمكة في خامس صفر سنة ثلاثة وثلاثين رجع الحال لما كان عليهِ ولم يزل يزداد لوقتنا هذا ولم تزل اولياء الشيخ بعدهُ على القول بحلّ القهوة والمواظبة عليها حتى ان اجلّهم قطب دائرة اهل الحرمين في الظهور علماً وصلاحاً وافتاءً وتدريساً وتأليفاً كان اجلّ ما يُحضرهُ لمن يرد عليهِ من الاكابر ومَن دونهم القهوة ويتكرر

فعلهُ لذلك في اليوم والليلة مرات خصوصاً في زمن الموسم وهي كانت مكرمتي عندهُ اذا قدمتُ عليهِ بمكة والمدينة او بالقاهرة في اوقات سفرهِ اليها وكذلك كان يشربها بمنزلي ايام اقامتهِ بالقاهرة

وفي سنة تسع وثلاثين رُفع للشيخ العلامة واعظ العصر شهاب الدين احمد بن عبد الحق السنباطي الشافعي سؤالٌ هذه صورتهُ ما قولكم رضي الله عنكم في شرابٍ يسمونهُ القهوة يجتمع عليهِ الجماعة ليشربوهُ ويزعمون انهُ مباح مع انهُ يترتب عليهِ مفاسد كثيرة فهل ذلك جائزٌ ام حرام . فاجاب بحرمتها وأنها مسكرة وكتب على هذا السؤال جواباً واسع العبارة لا يحتملهُ هذا المختصر احال فيهِ على إخبار من شربها وتاب عنها وعلى ما يوصف بهِ الجمع في بيوتها من الاوصاف المانعة لشربها وسيأتي ذكر ذلك ملخصاً في الباب الثاني

وفي سنة واحد واربعين تعرضوا الشيخ في مجلس وعظه بذكر القهوة فافتى بحرمتها وصمم على ذلك في مجالسهِ بالجامع الازهر فتعصب جماعةٌ من القوم لما سمعوا منهُ ذلك وخرجوا الى بيوتها من تلقاء انفسهم بغير امر حاكم بل لمجرد الخفلات العاميّة وكسروا اوانيها وضربوا جماعةً ممن كان هناك فقام بسبب ذلك فتنةٌ وتعصيب ممن يقول بالحلّ والحرمة شهيرة واحتاج الامر الى الاستفتاء ايضاً واتصل بقاضي مصر وهو الشيخ محمد بن الياس الحنفيّ فسأل عن حكمها جماعةً من علماء القاهرة المفتين بها واعتمد على افتاء من قال بحلّها من العلماء المعتبرين ثم استظهر بعد ذلك فأمر بطبخها في منزلهِ وسقى منها جماعاتٍ بحضرتهِ وجلس يتحدث معهم ليختبر حالهم فلم يرَ فيهم تغيراً

ولا شيئاً منكراً فأقرّها على حالها . وفي منع الشيخ شهاب الدين بن عبد الحق السنباطي لبيع القهوة وافتآئهِ بحرمتها وقيام العامة معهُ يقول بعضهم واظنهُ الفقيه الحجبون بجدة شعراً

ان اقواماً تعدّوا والبلا منهم تأتى
حرّموا القهوة عمداً قد رووا افكاً وبهتا
ان سألت النصّ قالوا ابن عبد الحق افتى
يا أُولي الفضل اشربوها واتركوا ما قال بهتا
ودَعُوا المذّال فيها يضربون المآء حتى

(ستأتي البقية)

العادة والطبيعة

ذُكر مرةً امام فونتنال قولهم في المثل العادة طبيعةٌ ثانية فقال لكن احبّ ان اعلم ما الطبيعة الأُولى يريد ان كل ما في طبيعة الانسان مرجعهُ العادة اما مباشرةً من افعال الشخص او اكتساباً من طريق الإرث . وقد بالغ بعضهم في هذا الموضع فقال ان المشي عادة والاكل عادة والنوم عادة حتى ان الصحة يمكن ان تُعَدّ مع التوسع عادة ولا يخفى ان كل ذلك موجهٌ عند هذا القائل الى الطبائع الموروثة

ولا ينبغي ان يؤخذ مما ذُكر أن الانسان آلةٌ صمّآء يتلقى العادة من غير ان يكون للارادة شركةٌ في ثبوتها اذ ليس من عادةٍ تُنتحَل او تُهجَر الا وللارادة فيها الخطوة الاولى وهي تنشأ تحت عاملين احدهما تمرين الفطرة على

قبولها حتى تنطبع عليها وتصير سجيةً فيها والآخر تعريض البنية لأُلفة ما بينها وبينهُ منافرةٌ كالسموم واختلاف الاقاليم وسائر الاعراض المفسدة . وبالاول تكتسب الاعضآء ما نجد فيها من السهولة والطوع في ضروب الاعمال والحركات المختلفة وبالثاني تألف البنية بما فيها من الاستعداد التركيبي فعل السموم واختلاف حرّ الاقليم وبردهِ الى اقصى درجاتهما بحيث ترى الجسم اشبه بقطعةٍ من المطّاط قابلةٍ لأَن تتشكل بجميع الاشكال وتوافق جميع البيئات . ومما يؤثر عن بقراط ان مباشرة ما اعتدتهُ ولو كان مضرًّا في نفسهِ اقلُّ ضرراً مما لم تعتدهُ ولو كان نافعاً

ومعلومٌ ان اكثر انواع السموم حتى اشدّها فعلاً يمكن ان تُتناول الى مقادير كبيرة بشرط ان تؤخذ على التدريج حتى يعتادها الجسم ويألفها شيئاً فشيئاً . فان المنّ مثلاً الذي يكون من ٥٠ الى ١٠٠ غرام مسهلاً اذا أُخذ بمقادير قليلة كان غذآءً يتمثل في الجسم وكذلك الزرنيخ والايثير والمرفين والتبغ بل ملح الطعام نفسهُ كل هذه تُعَدّ من السموم ونحن نتناولها كل يوم فنتداوى ببعضها ونغتذي بالبعض الآخر ولا يلحقنا منها أذًى

ولما كان اتخاذ العادة لا يصلح الاّ تدريجيًّا فكذلك الاقلاع عنها لا يصلح الا تدريجياً حتى تألف الطبيعة تركها كما ألفت استعمالها ولا يجوز ان تُقطَع دفعةً واحدة ولو كانت من العوائد المضرّة . فان معتاد السمّ مثلاً اذا تركهُ دفعةً كان ذلك هو السمّ القاتل لهُ لان اكثر السموم كما ذكرهُ الاطبآء تعمل في المراكز العصبية فتؤثر فيها تهييجاً عنيفاً بالغاً آخر حدودهِ فاذا تُرك تناولها فجآءةً حدث اختلالٌ في حالة العصب بالانتقال دفعةً